www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدار الآخرة

طول الأمل وكيفية العلاج

الشيخ

ندا أبو أحمد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدار الآخرة

طول الأمل وكيفية العلاج

تمهيد:

إن الحمد لله تعالى نحمَده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضلَّ له ومَن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70، 71].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديث كتاب الله – تعالى – وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم – وشرَّ الأمور مُحدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن الناظر في أحوال الناس اليوم يرى العجبَ العجاب؛ حيث انشغل الكثير منهم بالشهوات، وركبوا المنكرات، وأعرَضوا عن عبادة رب الأرض والسموات، والسبب في هذا طول الأمل، وهذا أمر قد شوهد بالعيان، ولا يحتاج إلى بيان.

وصدق الحسن البصري – رحمه الله – حيث قال: "ما أطال عبدٌ الأملَ إلا ساء العمل"؛ الزهد للحسن البصري (ص 82)، (قِصَر الأمل: 82).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصدَق الحسن البصري؛ فطول الأمل سببٌ لقلة الطاعة، والتكاسل عن العبادة، وقسوة القلب، وتأخيرِ التوبة، واتباع الهوى، وكثرة المعصية، والحرص على الدنيا، والغفلة عن الموت، وما بعده من شدائد وأهوال، وربما الموت على المعصية؛ وهذا هو عينُ الشقاء.

يقول مالك بن دينار - رحمه الله -: "أربع من الشقاء: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا"(1).

ويقول الفضيل بن عياض - رحمه الله -: "إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قِصَر الأمل"، وقصر الأمل: هو الاستعداد للرحيل في أي وقتٍ وحين، فلا ترى صاحبَه إلا متأهِّبًا؛ لعلمه بقُرْب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مرَّ السحاب.

ومَثَلُ مَن يُطيل الأملَ ويقعد عن العمل، والآخر المتأهِّب المُستعِد، كمثل قومٍ في سفر، فنزلوا قرية، فمضى المتأهِّب الحازم المستَعِد فاشترى ما يَصلُح لتمام سفره، وجلس متأهبًا للرحيل، أما المُفرِّط فإنه يقول كل يوم: سأتَأهَّبُ غدًا؛ حتى أعلن أمير القافلة الرحيل، ولا زاد معه، وهذا حال المؤمن الحازم الذي لا يَندم عند مجيء الموت، بخلاف المُفَرِّط الذي يصرخ ويقول: {رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} [المؤمنون: 99، 100]، ولقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تُحَذِّر من طول الأمل، وقد بيَّن رب العالمين في القرآن الكريم أنَّ طولَ الأمل من وساوس الشياطين؛ قال تعالى: {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: 25]، قال الحسن البصري - رحمه الله -: "أي زيَّن لهم الشيطانُ الخطايا، ومدَّ لهم في الأمل"؛ الجامع لأحكام القرآن: 249/16.

فالشيطان يُغرِّر الإنسان، ويَعِده ويُمنِّيه الخُلْد، ويشجِّعه على الانغماس في الشهوات، والوقوع في المحرَّمات، واللهث وراء الملذات؛ كما قال تعالى عن الشيطان: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [النساء: 120].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

* ومَن كان هذا وصْفَه، فحاله كحال البهائم؛ قال تعالى: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: 3]، أي: دعْهم يا محمد يعيشوا كالأنعام، ولا يَهتموا بغير الطعام والشهوات، ويشغَلهم طولُ الأمل عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى، قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في "فتح الباري": "هذا تنبيه على أن إيثار التلذُّذ والتنعُّم، وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين"، وصدَق الحافظ ابن حجر، فلقد وصَف ربُّ العالمين اليهودَ والمشركين بهذا الوصف المَشين؛ فقال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 96].

يقول صاحب "الظلال" في الآية السابقة: "ولكنها خَصْلة أخرى في يهود، خصلة يُصوِّرها القرآن، صورة تَفيض بالزِّراية، وتنضِح بالتحقير والمهانة؛ حيث قال رب العالمين: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة، حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام، إنها يهود في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفَع رأسها إلا حين تغيب المطرقة؛ فإذا وُجدت المطرقة، نكستْ وعنتِ الجباه جبنًا وحرصًا على الحياة، أي حياة، {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}، يود أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة؛ ذلك لأنهم لا يَرجون لقاء الله، ولا يُحِسُّون أن لهم حياةً غير هذه الحياة، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها، حين تُحِس النفس الإنسانية أنها لا تتَّصِل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة"؛ اهـ.

- ولا شك أن العبد إذا أَمعنَ النظرَ بصدق في هذه الصفة المرذولة، والخَصْلة القبيحة التي اتَّصَف بها اليهود والمشركون، وتَدبَّر الآية الكريمة، فسوف يقوده ذلك إلى قِصَر الأمل، والزهد في الدنيا الفانية، والتسابق إلى الدار الآخرة الباقية الخالدة.

وقال تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الزمر: 54- 58].

قال ابن رجب – رحمه الله – في "لطائف المعارف"، (ص 353)، عند ذِكْر هذه الآيات:

"اعلم أن الإنسان ما دام يأمُل الحياة، فإنه لا يقطَع أملَه من الدنيا، وقد لا تَسمَح نفسه بالإقلاع عن لذَّاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويُرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيَقَّن الموت وأيِس من الحياة، أفاق من سكرتِه بشهوات الدنيا؛ فنَدِم حينئذ على تفريطه ندامةً يكاد يَقتُل نفسه، وطلب الرَّجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يُجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذَّر الله في كتابه عبادَه من ذلك؛ ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح".

وقال تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 10، 11].

قال ابن كثير – رحمه الله – في "تفسيره":

"كل مُفرِّط يَندَم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا؛ ليستعتِب ويَستدرِك ما فاته، وهيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آتٍ".

• ولقد بيَّن ربُّ العالمين في كتابه الكريم أن طول الأمل يُورِث قسوةَ القلب؛ فقال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 16].

وقسوة القلب هي من أشد الأمراض فتْكًا بالإنسان، وإن أشدَّ المصائب قبل الموت هو موت القلوب، وموت القلوب إنما يكون بالحرص على الدنيا الفانية، والإعراض عن الباقية، وليعلم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإنسان أنه كلما ازداد حرصًا على الدنيا، ازداد بُعدًا عن الله – تعالى – ويقسو قلبه، ويُطيل الأملَ، فيَكسَل عن العمل وينسى الآخرة.

وقد رُوي في الحديث الذي أخرجه الحاكم: ((اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصًا، ولا يزدادون من الله إلا بُعْدًا)).

* حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – عن طول الأمل، والتحذير منه:

أخرج البيهقي في "الزهد الكبير" عن أنس – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((يهرَمُ(1) ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل))؛ قال الحافظ العراقي: "رواه ابن أبي الدنيا في قِصَر الأمل بإسناد صحيح.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا، والانكباب عليها، والحب لها، والإعراض عن الآخرة.

وأخرج عبدالغني بن سعيد في "الإيضاح" عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((الشيخ يَضْعُفُ جسمُه، وقلبه شاب على حبِّ اثنتين: طول الحياة، وحب المال))؛ (الصحيحة: 1906)، (صحيح الجامع: 3749).

وأخرج البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حبِّ الدنيا، وطول الأمل))، وجاء في كتاب "قِصَر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا ص 37 عن أبي عثمان النهدي قال: "قد بلغت ثلاثين ومائة سنة، فما منِّي شيء إلا قد عرفتُ فيه النُّقصان إلا أملي، فإنه كما هو".

إلامَ تُغرُّ بالأمل الطويل = وليس إلى الإقامة من سبيلِ

فدَعْ عنك التعلُّلَ بالأماني = فما بعدَ المشيب سوى الرحيل

أتأمَنُ أن تدومَ على الليالي = وكم أفنيْنَ قبلك من خليل

وما زالتْ بناتُ الدهر تُفني = بني الأيام جيلاً بعد جيل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

باقة من أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – وفيها الحثُّ على قِصَر الأمل، وأن الأمر أعجل مما نتصوَّر؛ أخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما –: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا خطَب فذكر الساعة، رفع صوته واحمرَّت وَجنتاه، كأنه مُنذِر جيش يقول: ((صُبِّحتم مُسِّيتم))، ثم يقول: بُعِثتُ أنا والسَّاعَة كهاتين، يفرِّق بين أُصبعيه السبابة والتي تليها، ((صَبَّحتْكُم السَّاعَةُ ومسَّتْكم)).

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن الحبيب النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((كيف أَنعَمُ وصاحب القرنِ قد التقَم القرنَ، وحنى جبهتَه، وانتظِر أن يؤذَن له))، وعند الترمذي بلفظ: ((كيف أنعم وصاحب الصور قد التقَمه، وأصغى سمْعَه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمَر بالنفخ؟))، فقالوا: يا رسول الله، وما تأمرنا؟ قال: ((قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل))؛ (السلسلة الصحيحة: 1079).

صاحب القرن: إسرافيل – عليه السلام – المُوكَّل بالنفخ في الصور لنفخة الصَّعْق، ونفخة البعث والقيام من القبور.

وفي رواية عند الحاكم في "المُستدرَك" من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((إن طرف صاحب الصور منذ وُكِّل به مُستعِد ينظر نحو العرش، كأن عينيه كوكبان دُرِّيَّان مخافة أن يؤمَر قبل أن يرتدَّ إليه طرفه))؛ (السلسلة الصحيحة: 1078).

عمر الدنيا مهما طال فهو قصير:

1- أخرج الإمام أحمد بسند صحيح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((لم يتبقَّ من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وكانت الشمس على رؤوس الجبال، أوشكت الشمسُ أن تَغرُب))؛ (صحَّحه أحمد شاكر رحمه الله).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

2- أخرج ابن أبي الدنيا" في "قصر الأمل" عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والشمس على أطراف السَّعَف، فقال: ((ما بقي من الدنيا إلا مِثلُ ما بقي من يومنا هذا إلى ما مضى منه))؛ (قال الحافظ العراقي - رحمه الله -: إسناده حسن).

3- وعند الإمام مسلم: ((لم يبقَ من الدنيا إلا كصُبابَةٍ)).

والصُّبابة: بقية الماء في نهاية الإناء، أو في الكوب، لم يبقَ إلا كصبابة يتصابُّها صاحبها؛ أي يَدلقها صاحبها.

4- ومرَّ - صلى الله عليه وسلم - على قوم يُصلِحون خُصًّا لهم قد وَهَى، فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((الأمر أعجل من ذلك)).

فاعلم أخي الحبيب، أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظُمت فهي حقيرة، والليل مهما طال لا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لا بد من دخول القبر، فكم ممن راح في طلَب الدنيا أو غدَا، أصبح من سكان القبور غدًا.

واعلم أخي الحبيب أن الدنيا دار مَمَر، والآخرة هي دار المَقَر، فخذوا من ممرِّكم لمقرِّكم، ولا تفضَحوا أستارَكم عند مَن يعلم أسراركم.

جاء في كتاب "قصر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا أن النخعي قال: "يا أيها الناس، إن الدنيا جُعلت قليلاً، وإنه لم يبقَ إلا قليلٌ من قليلٍ"، كان هناك شيخ كبير بلغ من العمر 98 عامًا يتحدَّث عن نفسه فيقول: "كأني دخلتُ من هذا الباب، وخرجتُ من الباب الآخر".

واعلم أخي الكريم أنك عندما تُولَد فإنه يُؤذَّن في أذنك اليمنى، وتُقام الصلاة في أذنك اليسرى، وعندما تموت يُصلَّى عليك، فكأن حياتك هي ما بين الأذان والإقامة؛ قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [يونس: 45]، وقال تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ضُحَاهَا} [النازعات: 46]، وقال تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} [المؤمنون: 112، 113].

فمهما طال عمر الإنسان في هذه الدنيا فهو قصير، ما دام الموت هو نهاية كل حي، وعند الموت تنكمِش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسانُ؛ حتى لكأنها لحظات مرَّت كالبَرق الخاطف.

مرَّت سنون بالوِصال وبالهَنا = فكأنها من قِصرها أيامُ

ثم انثنتْ أيامُ هجرٍ بعدها = فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضتْ تلك السنون = وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ما مضى من الدنيا أحلام، كنائمٍ رأى مسيرة حياته في لمح البصر ثم استيقظ، ذهبت الأيام بآلامها وآمالها، بشدتها وقسوتها، لكن بقي الحساب.

- ومما يدل على قِصَر الأمل أيضًا المبادرة بكتابة الوصية، فإنه لا يدري لعل الموت يُفاجئه قبل أن يوصي، وكثير منا لم يكتب وصيته إلى الآن، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على طول الأمل.

أخرج البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ما حق امرئ مسلم له شيءٌ يُوصي فيه، يَبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)).

- وفي رواية أخرى في "الصحيحين": ((ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين وله شيء يريد أن يُوصي به، إلا ووصيَّته مكتوبة عند رأسه)).

قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: ((ما مرَّت عليَّ ليلة منذ سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك، إلا وعندي وصيتي)).

وكان بكر بن عبدالله المزني يقول: "إن استطاع أحدكم ألا يَبيتَ إلا وعهده عند رأسه مكتوب، فليفعل، فإنه لا يدري لعله أن يبيتَ في أهل الدنيا، ويُصبِح في أهل الآخرة)).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأخرج الطبراني من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((صَلِّ صلاة مودع))، وكان بكر بن عبدالله المزني يقول: "إذا أردت أن تنفعكَ صلاتُك، فقل: لعلي لا أُصلِّي غيرها"؛ (قِصَر الأمل: ص 82).

وأخرج الطبراني عن رجل من بني النخع قال: سمعتُ أبا الدرداء حين حضرته الوفاة قال: "أُحدِّثكُم حديثًا سمعتُه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم، سمعته يقول: ((اعبُد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، واعدُد نفسك في الموت، وإيَّاك ودعوة المظلوم؛ فإنها تُستَجابُ)).

* وكان الحبيب النبي - صلى الله عليه وسلم - دائمًا ما يُذكِّر بالموت حتى لا يُطيل الإنسان منا الأمل فيسيء العمل؛ فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن أُبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ذهب ثلثا الليل، قام فقال: ((يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعُها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه))؛ (الصحيحة: 952).

- **ولقد حثَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - على قِصَر الأمل:**

وهذا ما نراه جليًّا في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: ((أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنكِبي، فقال: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل))، وفي رواية: ((فإنك يا عبدالله لا تدري ما اسمك غدًا)).

وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: "إذا أصبحتَ فلا تنتظِر المساء، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك"، زاد أحمد والترمذي: وعُدَّ نفسك من أهل القبور"؛ (صحيح الجامع: 4579).

وهذا الحديث أصلٌ في قصر الأمل في الدنيا، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتَّخذَ الدنيا وطنًا وسكنًا يطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر، وقد اتفقت على ذلك وصايا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأنبياء وأتباعهم؛ قال - سبحانه وتعالى - حاكيًا عن مؤمن آل فرعون: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر: 39]، وقال المسيح - عليه السلام - لأصحابه: "اعبروها ولا تعمُروها".

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنًا، فينبغي للمؤمن أن يكون فيها على حالين:

الأولى: أن يكون كأنه غريب يُقيم في بلد غُربة، هَمه التزود للرجوع إلى وطنه؛ قال أبو الدرداء لعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -: "يا عمر، أتذكُر حديثًا حدَّثناه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ليكن زادُ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب)).

الثانية: أن يكون كأنه مُسافِر غير مُقيم البتَّة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة؛ فلهذا وصَّى النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - ابنَ عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين؛ فهو غير متعلِّق القلب ببلد الغربة، بل قلبه مُتعلِّق بوطنه الذي يرجع إليه، فلا همَّ له إلا التزوُّد بما ينفعه للعودة إلى موطنه الأصلي وهو الجَنَّة.

فالله لما خلَق آدم وأسكنه هو وزوجه الجنَّة، ثم أُهْبِط منها، وعَده بالرجوع إليها وصالحي ذريتهما؛ لذا تجد أن المؤمنين في شوق إليها، فالمؤمن أبدًا يَحِنُّ إلى وطنه الأول، كما قال القائل:

كم مترل للمرء يألْفه الفتى = وحنينه أبدًا لأوَّلِ مَترِلِ

ويقول ابن القيم - رحمه الله -:

فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها = منازلنا الأُولى وفيها المُخيَّمُ

ولكننا سَبْي العدو فهل ترى = نعود إلى أوطاننا ونُسلَّمُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فعلى المؤمن أن يعي هذه الحقيقة: أنه في الدنيا كالغريب، وأنه راحل عنها، وقد مرَّ بنا قول الحبيب - صلى الله عليه وسلم - لابن عمر - رضي الله عنهما -: ((كن في الدنيا كأنك غريب)).

وكان الحسن البصري - رحمه الله - يقول: "المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يَجزَع من ذلِّها، ولا يُنَافِسُ في عزِّها، له شأن وللناس شأن".

وكان عطاء السلمي - رحمه الله - يقول في دعائه: "اللهم ارحم في الدنيا غُرْبتي، وارحم في القبر وَحشتي، وارحم موقفي غدًا بين يديك"؛ أخرج الترمذي والحاكم وابن ماجه عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ما لي وللدنيا؟ إنما مَثَلي ومَثَل الدنيا كمَثل راكب قَالَ في ظل شجرة في يوم صائف، فراح وتركها))؛ قال: أي نام وقت القيلولة.

- وفي رواية: ((ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلَّ تحت شجرة، ثم راح وترَكها))؛ (الصحيحة: 438)، (صحيح الجامع: 5668).

- وفي رواية: ((ما لي وللدنيا؟ وما للدنيا وما لي! والذي نفسي بيده، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار، ثم راح وتركها))؛ (الصحيحة: 439)، (صحيح الجامع: 5669).

وبيَّن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الهلاك والشقاء في طول الأمل:

فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((صلاحُ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلِك آخرها بالبخل والأمل))؛ (صحيح الجامع: 3845)، وفي رواية أخرى عند ابن أبي الدنيا: ((نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلِك آخرها بالبخل والأمل))؛ (صحيح الجامع: 9746).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال بعض الحكماء: "احذر طولَ الأمل؛ فإنه سبب هلاك الأمم"، "وإياك من طول الأمل، فإنه يَمنع خير العمل".

وكان محمد بن واسع - رحمه الله - يقول: "أربعة من الشقاء: طول الأمل، وقسوة القلب، وجمود العين، والبخل"؛ (صفة الصفوة: 366/3)، (وقِصَر الأمل: ص76).

قال القرطبي - رحمه الله -: "طول الأمل داء عُضال، ومرض مُزمِن فتَّاك، ومتى تمكَّن من القلب فسد، وصَعُب علاجه، ولم ينجح فيه دواء، وهو الداء الذي أعيا الأطباء، ويَئِس من شفائه الحكماء والعلماء"؛ اهـ.

وقد روي عن الحبيب النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((أخسر الناس صفقة: رجل أخلَق يده في أمانيه، ولم تُساعِده الأيام على تحقيق أمنيَّته، فخرج من الدنيا بغير زاد، وقَدِم على الله بغير حُجَّة))؛ (أخرجه ابن النجار).

احذر طول الأمل فالموت يأتي بغتة:

أخرج البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال: "خَطَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطًّا، وقال: هذا الإنسان، وخطَّ إلى جنبه خطًّا، وقال: هذا أجله، وخطَّ خطًّا آخر بعيدًا منه، فقال: وهذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقربُ)).

وأخرج الترمذي والنسائي عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: "خطَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - خطًّا مربَّعًا، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطَّ خُطوطًا صِغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجلُهُ محيط به - أو قد أحاط به - وإن أخطأه هذا، نَهَشه هذا))؛ (صحيح الجامع: 1211).

* فلهذا ولغيره كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أخوف ما يخاف علينا طول الأمل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقد رُوي في الحديث الذي أخرجه الحاكم عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن أخوفَ ما أخافُ على أمتي: الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيُضِل عن الحق، وأما طول الأمل فيُنْسي الآخرة))، والصحيح أن هذا الحديث موقوف على علي بن أبي طالب، وهو عند البخاري معلَّقًا.

فطول الأمل هو سبب شقاء كثير من الناس؛ حيث يخدعهم الشيطان فيُصوِّر لهم أن أمامهم عُمرًا طويلاً وسنين مُتعاقِبة، يبنون فيها آمالاً شامخة، فيجمعون همَّتهم لمواجهة هذه السنين ولبناء هذه الآمال، وينسى الآخرة ولا يتذكَّر الموت، وإذا ذكره يومًا تبرَّم منه؛ لأنه - في ظنِّه - يُنَغِّص عليه لذاته، ويُكَدِّر عليه صفو عيشه.

فأين من تَعِب ولَهَا؟ أين من غفَل وسَهَا؟ دهاه أفظع ما دهى؟ وحُطَّ ركنه فوَهَى، ذهبت لذةُ ذنوبه وحُبِس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى.

السلف وحديثهم عن قصر الأمل:

أخرج البخاري معلَّقًا عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: "إن أخوفَ ما أخافُ عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقبِلة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مُدبِرة، ولكل واحدٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليومَ عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل"؛ وأخرجه الإمام أحمد في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبدالله بن المبارك في كتابه الزهد والحلية.

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: "التسويفُ جند من جنود إبليس عظيم، طالما خَدَع به"؛ (قصر الأمل: ص141).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: "تعوَّدوا الخير، فإن الخير عادة، وإيَّاكم وعادةَ السُّوَّاف من سَوْفٍ(1) أو من سَوْف"؛ (قصر الأمل: ص 143؛ لابن أبي الدنيا، وأخرجه وكيع بن الجراح في كتابه الزهد، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه).

قال محمود بن الحسن:

والمرءُ مرتَهَن بسوفَ وليتني = وهلاكُه في السَّوْف واللَّيْتِ

مَن كانت الأيام تسير به = فكأنه قد حلَّ بالموتِ

لله درُّ فتًى تدبَّر أمرَه = فغدا وراح مُبادِر الفوتِ

وعن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: "هذا المرء، وهذه الحُتُوف حوله شوارع إليه، والهَرَمُ وراء الحُتُوف، والأملُ وراء الهَرَم، فهو يأمُل، وهذه الحتوف شوارع إليه، فأيها أُمِرَ به أخذه، فإن أخطأته الحُتُوفُ قتَله الهَرَم، وهو ينظر إلى الأمل"؛ (قصر الأمل؛ لابن أبي الدنيا: ص 33)، وجاء في كتاب "قصر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا كذلك ص67 عن يزيد بن شريك التيمي قال: "خرجنا حُجَّاجًا، فوجدنا أبا ذر بالرَّبَذَة قائمًا يُصلِّي، فانتظرناه حتى فَرَغ من صلاته، ثم أقبل علينا، فقال: هلمَّ إلى الأخ الناصح الشفيق ثم بكى، فاشتدَّ بكاؤه، وقال: قتلني حبٌّ يوم لا أُدرِكه! قيل: وما يوم لا تُدرِكه؟ قال: طول الأمل".

الرَّبَذَة: من قرى المدينة، قريبة من ذات عِرْق على طريق الحجاز.

وكان سلمان الفارسي – رضي الله عنه – يقول: "أُصْبِح على وَجَل (خوف)، وأُمْسِي على وجل"؛ (قصر الدنيا: ص 112 لابن أبي الدنيا)، وجاء في كتاب "الزهد" للإمام أحمد (90/2) و"حلية الأولياء" (206/1)، و"قصر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا ص (40 – 41)، عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – قال: "ثلاث أعجبتني، ثم أضحكتني! مؤمِّل الدنيا والموت يطلُبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملءَ فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

راضٍ عنه، وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني، فراقُ محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - وحزبه والأحبَّة، وهول المَطلَع، والوقوف بين يدي ربي، لا أدري إلى الجنة يؤمَر بي أو إلى النار".

وجاء في كتاب "التذكرة" للقرطبي - رحمه الله - (ص87) هذا القول، ولكن عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - حيث قال: "أضحكتني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمِّل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فِيه، وهو لا يدري أأرضى اللهَ أم أسخطه؟! وأبكاني فِراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المَطلَع عند غمراتِ الموت، والوقوف بين يدي الله، يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار".

وكأن ابن آدم من كثرة ما أمدَّ له الشيطان في الأمل، وأنساه بغتةَ الأجل، وأنساه قرب الموت والرحيل، وكأنه بمأمن من أن ينتقل إلى الرب الجليل، وأنه راحل إليه، وأنه واقف بين يديه - سبحانه وتعالى.

ويُروى عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قام على درج دمشق فقال: "يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟ إن مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرًا ويبنون مَشيدًا، ويُؤمِّلون بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبُنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا وزورًا، هذه عادٌ قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً، فمَن يشتري منِّي اليوم تَركتَهم بدرهمين، وأنشد يقول:

يا ذا المؤمِّل آمالاً وإن بَعُدتْ = منه ويزعُم أن يحظى بأقصاها

أنَّى تفوز بما ترجوه ويكَ وما = أصبحت في ثقة من نَيْل أدناها

وأخرج أبو نعيم عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال:

"يا أهل دمشق، استمعوا إلى قول أخٍ لكم ناصح، فاجتمَعوا إليه فقال: "ما لي أراكم تَبنون ما لا تَسكُنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتُؤمِّلون ما لا تُدرِكون؟ فإن مَن كان قبلكم بنَوا مشيدًا، وأمَّلوا بعيدًا، وجمعوا كثيرًا، فأصبح أملهم غرورًا، وجمعهم بُورًا، ومساكنهم قبورًا".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي "حلية الأولياء" بلفظ آخر وفيه:

"يا أهل دمشق، أنتم الإخوان في الدين، والجيران في الدار، والأنصار على الأعداء، ما يمنعكم من مودَّتي، وإنما مؤنتي على غيركم؟ ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلَّمون؟ وأراكم قد أقبلتم على ما تُكُفِّل لكم به، وتركتم ما أُمِرْتُم به؟ ألا إن قومًا بنَوا مشيدًا، وجمعوا كثيرًا، وأمَّلوا بعيدًا، فأصبح بُنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا، وجمعهم بورًا، ألا فتعلَّمُوا وعلِّمُوا؛ فإن العالم والمتعلِّم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما"؛ (حلية الأولياء: 213/1).

وقال أبو الدرداء – رضي الله عنه –: "ابن آدمَ، طأ الأرض بقدمِك؛ فإنها عن قليل قبرك، ابن آدم، إنما أنت أيام؛ فكلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك، ابن آدم، إنك لم تَزَل في هدْم عمرك منذ سقطتَ من بطن أمك"؛ (الزهد الكبير للبيهقي: ص 233).

وهذا ما كان يقوله لقمان لابنه حيث قال له: "أي بني، إنك من يوم نزلتَ إلى الدنيا استدبرتَ الدنيا واستقبلتَ الآخرة، فأنت إلى دار تُقبِل عليها أقرب من دار تَبتعِد عنها".

وقال الحسن البصري – رحمه الله –: "يا ابن آدم، اعلم أنك أيام معدودة، فإذا مرَّ يومٌ مرَّ جزءٌ منك، وإذا مرَّ الجزء مرّ الكل، وأنت تعلم فاعمل".

وصدق القائل حيث قال:

إنَّا لنفرحُ بالأيام نَقْطَعها = وكل يوم مضى يُدنِي من الأجلِ

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا = فإنما الربح والخُسران في العملِ

فمِن جهلنا بقيمة الوقت (العمر) نفرح بمَغيب شمس كل يوم، ونحن لا نُدرِك أن هذا نهاية يوم من أعمارنا لن يعود أبدًا؛ صحائف طُويت، وأعمال أُحصيت، وأنفاس تُقرِّبنا إلى الأجل وتُبعِدنا عن الأمل.

جاء في كتاب "قصر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا أن رجلاً أنشد هذه الأبيات عند بعض الخلفاء:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حياتُك أنفاس تُعَدُّ فكلما = مضى نَفَسٌ منها انتقصتَ له جزءَا

فتُصبِح في نقْص وتُمسِي بمِثله = وما لك معقول تُحِس به رُزْءا

يميتك ما يُحسُّك في كل ساعة = ويحدوك حادٍ لا يُريد بك الهُزءا

وكان الحسن البصري يقول أيضًا:

"الدنيا ثلاثة أيام، أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلك لا تُدرِكه، فاليوم لك فاعمل فيه".

وكان أُويس إذا قيل له: كيف الزمان عليك؟ قال:

"كيف الزمان على الرجل إن أمسى يظن أنه لا يُصبِح، وإن أصبح ظنَّ أنه لا يُمسِي، فمُبَشَّر بالجنة أو النار".

والتقى حسان بن أبي سنان وحوشب، فقال حوشب لحسان:

"كيف أنت يا أبا عبدالله؟ قال: ما حال مَن يموت ثم يبعث ثم يُحاسب؟ أصبحت قريب أجلي، بعيد أملي، مسيء عملي".

وقيل للربيع بن خُثيم:

"كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال: "أصبحنا ضعفاء ومُذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظِر آجالنا".

وقيل لإبراهيم بن عيسى اليشكري: "كيف أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ في أجل منقوص، وعملٍ محفوظ، والموت في رِقابنا، والقيامة من ورائنا، ولا ندري ما يفعل الله بنا"؛ (الزهد الكبير: ص 249).

قال رجل لمحمد بن واسع: كيف أصبحتَ؟ قال: ما ظنُّك برجل يرتَحِل كل يوم مرحلة إلى الآخرة".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصدق القائل حيث قال:

نسيرُ إلى الآجال في كلِّ لحظة = وأيامنا تُطْوى وهن مراحلُ

وما أصبح التفريط في زمن الصِّبا = فكيف به والشيب للرأس شاعلُ

فارحل من الدنيا بزادٍ من التقى = فعمرك أيام وهن قلائلُ

وكان محمد بن واسع إذا أراد أن ينام، قال لأهله قبل أن يأخذ مضجعه:

"أستودِعكم الله، فلعلها أن تكون منيَّتِي التي لا أقوم فيها!"، فكان هذا دأبَه إذا أراد النوم؛ (جامع العلوم والحكم: 263/2)، (وقصر الأمل: ص 147).

وقال بكر بن عبدالله المزني لرجل يُدعى أبا جميلة ميسرة بن يعقوب الكوفي:

"يا أبا جميلة كيف أنت؟ قال: أنا والله هكذا، كرجل مادٍّ عنقه، والسيف عليها، ينتظر متى تضرب عنقه"؛ (إتحاف السادة المتقين)، (وقصر الأمل لابن أبي الدنيا: ص 46).

وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص70-71) عن يَزيد الرقاشي أنه قال:

"إلى متى نقول: غدًا أفعل كذا، وبعد غدٍ أفعل كذا، وإذا أفطرتُ فعلت كذا، وإذا قدمتُ من سفري فعلتُ كذا! أغفلتَ سفرَك البعيد، ونَسيتَ مَلَك الموت؟ أما عَلِمتَ أن دون غدٍ ليلة تُخترم فيها أنفس كثيرة؟

أما عَلِمتَ أن مَلَكَ الموت غيرُ مُنتظِرٍ بك أملَك الطويل؟ أما علمت أن الموت غاية كل حي؟ ثم يبكي حتى يبلَّ عمامته، ثم يقول: لو رأيته صريعًا بين أحبابه لا يقدر على ردِّ جوابهم، بعد أن كان جدِلاً خصِمًا سمْحًا كريمًا عليهم؟ أيها المغتر بشبابه، أيها المغتر بطول عمره، ثم يبكي حتى يبُل عمامته!"؛ (قِصر الأمل؛ لابن أبي الدنيا: ص 78).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال بكر بن عبدالله المُزني: "إذا أردت أن تنفعك صلاتُك فقل: لعلِّي لا أُصلِّي غيرها"؛ (قصر الأمل: ص 92).

قال عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – في بعض خطبه:

"إن لكلِّ سفرٍ زادًا لا محالة، فتزوَّدُوا لسفركم في الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدَّ الله من ثوابه وعقابه، ترغبون وترهبون، لا يطولنَّ عليكم الأمل فتَقسوا قلوبُكم، وتنقادوا لعدوِّكم، فإنه والله ما بُسِطَ أملُ مَن لا يدري لعله لا يُصبح بعد مسائه، ولا يُمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأيت ورأيتم مَن كان بالدنيا مُغْتَرًّا، وإنما تَقَرُّ عينُ مَن وثِق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح مَن أَمِن من أهوال القيامة، فأما مَن لا يداوي كَلْمًا، إلا إذا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسرَ صفقتي، وتظهر عوْلتِي، وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين فيه منصوبة، لقد عُنيتم بأمر لو عُنيت به النجومُ انكدرت، ولو عُنيت به الجبال لزالت، ولو عُنيت به الأرض لتشقَّقت، أمَا تعلمون أن ليس بين الجنة والنار مترلة؟ وأنكم صائرون إلى أحدهما".

وكتب الأوزاعي إلى أخ له فقال: "أما بعد، فقد أُحيط بك من كلِّ جانب، واعلم أنه يُسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والمَقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به والسلام".

وقال بعض الحكماء: "كيف يفرح بالدنيا مَن يومه يَهدِم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدِم عمره؟".

قال سفيان الثوري – رحمه الله –: "الزهد في الدنيا: قِصَر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء"؛ (حلية الأولياء: 386/6)، (والزهد الكبير للبيهقي: 79).

قال داود الطائي – رحمه الله –: "سألت عطوان بن عمرو التيمي: "قلتُ: ما قِصَر الأمل؟ قال: ما بين تردُّدِ النَّفَس"؛ (قصر الأمل لابن أبي الدنيا).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسُئل الإمام أحمد: "أي شيء الزهد في الدنيا؟ قال: قِصَر الأمل، مَن إذا أصبح قال: لا أمسي".

وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه أنه قال: "ما نمتُ يومًا قط فحدَّثتُ نفسي أني أستيقظ منه".

وقال عون بن عبدالله بن عتبة: "ما أنزل الموتَ كُنْه منزلته مَن عَدَّ غدًا من أجله، فكم من مستقبِل يومًا لا يستكمِله، وكم من مؤمِّل لغد لا يُدرِكه! إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتُم الأملَ وغروره"؛ (صفة الصفوة لابن الجوزي: 103/3)، (وقصر الأمل: ص 59).

وجاء في "قِصَر الأمل" (ص75) عن عتبة بن عبدالله قال:

"قالوا لعون بن عبدالله: ما أنفعُ أيامِ المؤمن له؟ قال: يوم يلقى ربَّه، فيُعْلِمه أنه راضٍ، قالوا: إنما أردنا من أيام الدنيا، قال: إن من أنفع أيامه له في الدنيا ما ظَنَّ أنه لا يُدرِك آخرَه".

وقال عون بن عبدالله بن عتبة أيضًا كما في "حلية الأولياء" (251/4)، و"قصر الأمل" (ص75) "ويحي! كيف أغفُل عن نفسي ومَلَكُ الموت ليس بغافل عني؟! ويحي! كيف أتَّكِلُ على طول الأمل والأجل يطلُبني؟!".

وعن أبان بن سُلَيم الصوري، أنه كتب إلى بعض إخوانه فقال: "أما بعد، فإنك أصبحت تُجدِّد الدنيا بطول أملك، وتتمنَّى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنما صرت حديدًا باردًا، والسلام".

وكان الحسن البصري – رحمه الله – يقول: "ما أكثر عبدٌ ذِكْر الموت إلا رُئي ذلك في عمله، ولا طال أملُ عبد قط إلا أساء العمل"؛ (الزهد للإمام أحمد: ص 236).

وكان الحسن يقول أيضًا: "هيهات هيهات، أهلك الناسَ الأماني، قول بلا عملٍ، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين".

وقال الحسن البصري أيضًا: "يا ابن آدم، إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدٍ"؛ (قصر الأمل: ص 144).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال الحسن كذلك: "اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: ما أَمَلُك؟ قال: ما أتى عليَّ شهر إلا ظننتُ أني سأموت فيه، فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل، فقالوا للآخر: ما أَمَلُك؟ قال: ما أتت عليَّ جمعة إلا ظننتُ أني سأموت فيها، فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل، فقالوا للآخر: ما أَمَلُك؟ قال: ما أَمَلُ مَن نَفَسُه في يدِ غيره؟!"؛ (الزهد للحسن البصري: ص 81)، (الزهد لابن المبارك: ص 85)، (قصر الأمل؛ لابن أبي الدنيا: ص 23).

وقيل للحسن البصري - رحمه الله -: "كيف أصبحتَ يا أبا سعيد؟ (كيف حالك؟)، قال: بأشدِّ حال، ما حال مَن أمسى وأصبح ينتظِر الموتَ لا يدري ما يفعل الله به".

وكان إذا أمسى يقول:

وما الدنيا بباقية لحي = وما حيٌّ على الدنيا بباقِ

وجاء في كتاب "الزهد الكبير"؛ للبيهقي (ص259) عن عبدالله بن المعتز أنه أنشد فقال:

الدهر يَبْلى وآمال الفتى جُدُد = تَزيد آمالُه والدهر يُفنيها

ليلٌ وصبْح وآجال مقدورة = تَمضي ونمضي وتطوينا ونَطويها

عن إسحاق قال: "قيل لرجل من عبدالقيس: أَوصِ، قال: احذروا سوف"؛ (قصر الأمل: ص 140).

وجاء في "حلية الأولياء" (55/6) عن أبي الجلد قال: "وجدتُ التسويف جندًا من جنود إبليس، وقد أهلك خلْقًا من خلْق الله كثيرًا".

عن صالح البراء قال: "رأيت زُرارة بن أوفى بعد موته في منامي، فقلت: أي الأعمال أبلغ فيما عندكم؟ قال: التَّوكُّل، وقِصَر الأمل"؛ (قصر الأمل لابن أبي الدنيا).

قال مالكُ بن مِغوَل: "يُقالُ: مَن قَصُر أملُه هان عليه عيشه"؛ قال سفيان: يعني في المطاعم والملابس؛ (قصر الأمل: ص 44-45).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص72) عن عمر بن ذر قال:

"ابنُ آدم إنما يتعجَّل أفراحَه بكاذب آماله، ولا يتعجَّلُ أحزانه بأعظم أخطاره".

أضحك سنَّك طولُ الأمل = و لم يُبْكِ عينك قُرْبُ الأجل

كأنك لم ترَ حيًّا يُساق = و لم تر مَيْتًا على مُغتَسل

وقال عبدالله بن ثعلبة الحنفي: "تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصَّار(1)"؛ (قصر الأمل: ص 74)، (والحلية: 254/6)، (وصفة الصفوة: 381/3).

وكما قيل:

ومُعجَب بثياب العيد يَقطعها = فأصبحت في غدٍ أثواب أكفانِ

وعن محمد بن أبي توبة قال: "أقام معروفٌ الكرخي الصلاة، ثم قال لي: تقدَّم، فقلت: إني إن صلَّيتُ بكم هذه الصلاة، لم أصلِّ بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تُحدِّث نفسك أن تصلي صلاةً أخرى؟! نعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع خير العمل"؛ (صفة الصفوة: 319/2)، (قصر الأمل: ص 81).

قال حاتم الأصم - رحمه الله -: "لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قِصَر الأمل".

قال الأصمعي: "سمعتُ أعرابيًّا يقول: مضى أمسك، وعسى غدًا لغيرك".

وجاء في "حلية الأولياء" (168/6) عن صالح بن بشير أنه كان يتمثَّل هذا البيت في قصصه:

وغائبُ الموت لا تَرجُونَ رَجعتَه = إذا ذوو سفرٍ من غَيبةٍ رجعوا

ثم يبكي ويقول: هو والله السفر البعيد، فتزوَّدوا لمراحله؛ فإن خير الزاد التقوى، واعلموا أنكم في مِثل أمنيتهم، فبادروا الموت، فاعملوا له قبل حلوله؛ ثم بكى".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تزوَّد من التقوى فإنك لا تَدري = إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر؟

فكم من فتى يُمسي ويُصبح لاهيًا = وقد نُسِجتْ أكفانه وهو لا يدري

وكم من عروسٍ زيَّنوها لزوجها = وقد قُبِضت أرواحهم ليلة القَدْرِ

وكم من صِغارٍ يُرتجى طول عمرهم = وقد أُدخِلت أجسادهم ظُلمةَ القبر

وكم من صحيحٍ مات من غير عِلَّة = وكم من سقيمٍ عاش حينًا من الدهر

وكم من ساكنٍ عند الصباح بقصره = وعند المسا قد كان من ساكن القبر

فكن مخلصًا واعمل الخير دائمًا = لعلك تحظى بالمثوبة والأجر

وداوِم على تقوى الإلهِ فإنها = أمانٌ من الأهوالِ في موقف الحشرِ

• وبلغ قصر الأمل بالسلف الصالح مبلَغًا عظيمًا، ولولا النقل الصحيح لقلنا:

هذا ضرب من الخيال أو شيء محال؛ أخرج البخاري في "الأدب المفرد" عن الحارث النخعي – رحمه الله – قال: "إن كان الرجل تُنتَج(2) فرسه من الليل فيَنحَرها غدوة، يقول: أنا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر، أن أصلِحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر مُتنفَّسًا".

يقول عاصم بن أبي النَّجود: "كان لأبي وائل خُصٌّ من قصبٍ، فكان إذا غزا نقَضه، وتصدَّق به، وإذا رجع أنشأ بِناءه".

قصب: بيت من قصب أو شجر؛ (حلية الأولياء: 103/4)، (وصفة الصفوة: 28/3)، (وقصر الأمل: ص 207).

– وجاء في كتاب "الزهد" لابن المبارك (ص99) عن الحسن قال:

"كان أحدهم يتَّخِذ القصبةَ، ويجعل فيها خيطًا يعلِّقها في أصبعه فيها ماء، يريد إذا بال أن يتوضأ، مخافة أن يأتيه أمر الله".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- جاء في كتاب "قصر الأمل" (ص68) لابن أبي الدنيا عن مسكين بن دينار قال: "كان شيخ متعبِّد، تجتمع إليه فتيانُ الحي ونُسَّاكهم، قال: فيُذكِّرهم، فإذا أرادوا أن يتفرَّقوا، قال: يا إخوتاه، قوموا قيام قومٍ قد يئسوا من المعاودة لمجلسهم، خوفًا من خَطَفات الموكَّل بالنفوس، قال: فيَبكي - والله - ويُبكي".

- وعن سُحيم مولى ابن تميم قال: "جلستُ إلى عامر بن عبدالله وهو يُصلِّي، فجوَّز في صلاته، ثم أقبَل عليَّ، فقال: أرحني بحاجتك فإني أُبادِر! قلت: وما تُبادِر؟ قال: ملكَ الموت رحِمَك الله! قال: فقمتُ عنه وقام إلى صلاته"؛ (قصر الأمل: ص 103)، (إحياء علوم الدين: 668/4).

- ومرَّ داود الطائي، فسأله رجل عن حديث، فقال: "دَعْني، فإني إنما أُبادِر خروج نفسي"؛ (قصر الأمل: ص 103)، (إحياء علوم الدين: 668/4).

- جاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي (ص 254): "كانت إحدى العابدات إذا أصبحت قالت: يا نفسُ، هذا اليوم، ساعديني يومي هذا، فلعلكِ لا تَرين بياض يوم أبدًا، وإذا أمستْ، قالت: يا نفسُ، هذه الليلة، ساعديني ليلتي هذه، فلعلك لا تَرين سواد ليلة أبدًا، فما زالت تَخدع وتدفع يومها بليلها، وليلها بنهارها حتى ماتت على ذلك".

- وكانت عُفيرة العابدة لا تضعُ جنبها إلى الأرض في ليل وتقول: "أخاف أن أؤخذ على غِرَّة وأنا نائمة"؛ (صفة الصفوة: 34/4).

- وكانت أم الصهباء معاذةُ العدوية - زوجة صِلة بن أشيم - إذا جاء النهار قالت: "هذا يومي الذي أموتُ فيه، فما تنام حتى تُمسي، وإذا جنَّ الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها، فلا تنام حتى تُصبح"؛ (صفة الصفوة: 22/4).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- قال بكر بن عبدالله المُزني: "كانت امرأة متعبِّدة، وكانت إذا أمستْ قالت: يا نفس، الليلة ليلتُك، لا ليلة لك غيرها، فإذا أصبحت قالت: يا نفْس، اليوم يومك، لا يوم لك غيره، فاجتَهدتْ"؛ (جامع العلوم والحكم: 263/2)، (وقصر الأمل: ص77).

- وكانت ماجدة القرشية تقول:

"سُكَّانُ دارٍ أُوذِنوا بالنقلة، وهم حيارى يركضون في المهلة، كأنَّ المُرَاد غيرهم، أو التأذين ليس لهم، والمَعْنِي بالأمر سواهم، آهٍ من عقولٍ ما أنْقَصَها، ومن جهالةٍ ما أتمَّها، بُؤسًا لأهل المعاصي، ماذا غُرُّوا به من الإمهال والاستدراج؟ وتقول: بَسَطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم، ولو نصبوا الآجال وطَووا الآمال، خفَّتْ عليهم الأعمال"؛ (صفة الصفوة: 74/4).

- عن أبي المتوكِّل الناجي قال: "قال لي سليمانُ بن عبد قيس: يا أبا المتوكِّل، قلت: لبيك، قال: عليك بما يُرغِّبك في الآخرة، ويزهدك في الدنيا، ويقربك إلى الله، قلت: وما هو يا عبد الله؟ قال: تَقصُر عن الدنيا همتك، وتسمو إلى الآخرة بنيَّتك، وتُصدِّق ذلك بفعلك، قلت: فكيف لي ما أستعين به على ذلك؟ قال: تقصر أملك في الدنيا، وتُكثِر رغبتك في الآخرة، حتى تكون بالدنيا بَرِمًا، وبالآخرة كَرِثًا(1)، فإذا كنت كذلك لم يكن شيء أحب إليك ورودًا من الموت، ولا شيء أبغضُ إليك من الحياة"؛ (قصر الأمل: ص 53-54).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- وقال ابن أبي عَمْرة:

يا أيُّهذا الذي قد غرَّه الأمل = ودون ما يَأْمُلُ التنغيصُ والأجَلُ

ألا ترى أنما الدنيا وزينتُها = كمترلِ الرَّكْب دارًا ثُمَّة ارتحلوا

حُتوفها رَصَدٌ وعيشُها نَكَدٌ = وصفوها رَنَقٌ(2) ومُلْكُها دُوَلُ(3)

تظلُّ تُفزِع في الرَّوعات ساكِنها = فما يسوغُ له لِيْنٌ ولا جَذَلُ(4)

كأنه للمنايا والرَّدى عَرَضٌ = تظلُّ فيه بناتُ الدهر(5) تنتَضِلُ(6)

المرء يشقى بما يسعى لوارثه = والقبر وارثُ ما يسعى له الرجلُ

(قصر الأمل: ص 73).

- وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص143) عن أبي بكر العدوي - رجل من قريش - قال: "كتب رجل من الحكماء إلى أخٍ له: "أخي، إياك وتأمير التسويف على نفسك وإمكانه من قلبك، فإنه مَحِلُّ الكَلال، ومَوئل المَلال، وبه تُقطَع الآمال، وبه تنقضي الآجال، وأنت - أي أخي - إن فعلتَ ذلك أدَلتَ من عزمك، فاجتمَع وهواك عليه فَعَلاه، واسترجعا من يديك من السآمة ما قد ولَّى عنك، ونفاه من جوارحك الحزن والمخافة، وأوثق الشوق والمحبة، فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من يديك بنافعة، ولا تجيبك إلى نفعٍ جارحةٌ، أي أخي، فبادر، ثم بادِر؛ فإنك مُبَادرٌ بك، وأسرِعْ؛ فإنك مَسرُوعٌ بك، وكأن الأمر قد بَغَتَك، فاغتبطتَ بالتَّسرع، وندِمت على التفريط ولا قوة بنا وبك إلا بالله".

- وأنشد أبو عبدالله بن أيوب:

اغتنم في الفراغ فَضْلَ ركوعٍ = فعسى أن يكون موتُك بَغْتَه

كم صحيحٍ رأيت من غير سُقْمٍ = ذهبتْ نفسه الصحيحة فَلْتَه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(الزهد الكبير؛ للبيهقي: ص 235).

- وجاء في كتاب "الزهد الكبير"؛ للبيهقي (ص237) عن منازل بن سعيد قال: "صلَّينا خلف جنازة فيها داود الطائي، وهو لا يَراني خلفه، فقال: {وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون: 100]، ثم قال لنفسه: يا داود، مَن خاف الوعيد قَصُر عليه البعيد، ومَن طال أمله قصُر عمله، وكل ما هو آتٍ قريب، واعلم يا داود أن كل شيء يَشغَلك عن ربك فهو مشؤوم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يَندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يُقدِّمُون، فما عليه أهل القبور يندَمون، عليه أهل الدنيا يقتتلون، وفيه يتنافسون، وعليه عند القضاء يَختصِمون، ثم نظر إليَّ فقال: لو علمتُ أنك خلفي لم أَنطِق بحرف"؛ (حلية الأولياء: 357/7)، (وقصر الأمل؛ لابن أبي الدنيا: ص 78).

- وجاء في كتاب "صفة الصفوة" (153/2): "أن صفوان بن سُليم لا يكادُ يخرج من مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا أراد أن يخرج بكى، وقال: أخاف ألا أعود إليه".

- وجاء في كتاب "قِصَر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا (ص60): "عن إبراهيم بن نشيط قال: قال لي أبو زُرعة الشامي: "لأقولنَّ لك قولاً ما قلتُه لأحدٍ سواك، ما خرجتُ من المسجد منذ عشرين سنة، فحدَّثتُ نفسي أن أرجع إليه".

- وجاء في كتاب "قِصَر الأمل" ص (47): "وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: "ما نمتُ يومًا قط فحدَّثتُ نفسي أني أستيقظ منه".

- وجاء في "صفة الصفوة" (320/3)، و"جامع العلوم والحكم" (263/2) عن إسماعيل بن زكريا - وكان جار الحبيب أبي محمد رحمه الله - قال: "كنتُ إذا أمسيتُ سمعتُ بكاءَه، وإذا أصبحتُ سمعتُ بكاءه، فأتيتُ أهله فقلت: ما شأنه يبكي إذا أمسى، ويبكي إذا أصبح؟ قال: فقالت لي: يخاف - والله - إذا أمسى ألا يُصبح، وإذا أصبح ألا يُمسي"؛ (قصر الأمل: ص 59).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- وكان حبيب يقول لزوجته: "إن متُّ في اليوم، فأرْسِلي إلى فلان يُغسِّلُني، وافعلي كذا، واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا يقوله في كل يوم"؛ (صفة الصفوة: 320/3)، (جامع العلوم والحكم: 263/3).

- وعن سويد بن عمرو قال: "سمعت داود الطائي يقول: "لو أمَّلتُ أن أعيش شهرًا، لرأيتني قد أتيتُ عظيمًا، وكيف أؤمِّل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخَلْقَ في ساعات الليل والنهار"؛ (صفة الصفوة: 320/3)، (جامع العلوم والحكم: 263/3).

- وجاء في "حلية الأولياء" (298/6)، و"صفة الصفوة" (354/3) عن الربيع بن عبدالرحمن قال: "قطعتنا غفلةُ الآمال عن مبادرة الآجال، فنحن في الدنيا حيارى، لا ننتبه من رَقدة إلا أعقبتنا في أَثَرِها غفلةٌ، فيا إخوتاه، نشدتكم بالله، هل تعلمون مؤمنًا بالله أغرَّ، ولِنقَمِهِ أقلَّ حذرًا من قومٍ هجمت بهم العِبَر على مصارع النادمين، فطاشت عقولهم، وضلَّت حُلُومهم عندما رأوا من العِبر والأمثال، ثم رجعوا عن ذلك إلى غير قلعة ولا نقلة؟! فبالله يا إخوتاه، هل رأيتم عاقلاً رضي من حالة نفسه بمِثل هذه حالاً؟ والله - عبادَ الله - لتبلُغُنَّ من طاعة [الله] رضاه، أو لتُنْكِرنَّ ما تعرفون من حُسْن بلائه، وتواتُر نَعمائه، إن تُحسِن أيها المرء يُحسَن إليك، وإن تُسئ فعلى نفسك بالعَتْب، فارجع، فقد بيَّن وأعذر وأنذر، فما للناس على الله حُجَّة بعد الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا".

- جاء في كتاب "قصر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا: "عن عبيدالله بن شُميط بن عجلان قال: "سمعت أبي يقول: "إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي أيام ثلاثة، فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أملٌ لعلك لا تُدرِكه، إنك إن كنتَ من أهل غدٍ، فإن غدًا يجيء برزق غد، إن دون غدٍ يومًا وليلةً تُخترم فيه أنفسٌ كثيرة، لعلك المُختَرم فيها، كفى كلَّ يوم همُّه، ثم قد حَمَلْتَ على قلبك الضعيف همَّ السنين والأزمنة، وهمَّ الغلاء والرخص، وهمَّ الشتاء قبل أن يجيء الشتاء، وهمَّ الصيف قبل أن يجيءَ الصيف، فماذا أبقيتَ من قلبك الضعيف لآخرته؟! كل يوم ينقص من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أجلك وأنت لا تحزن، وكل يوم تستوفي رزقك وأنت لا تحزن، أُعْطيت ما يكفيك، فأنت تطلُب ما يُطغيك! لا بقليلٍ تقنع، ولا من كثير تَشبَع!

وكيف لا يَستبين بعا لم جهلُه، وقد عجَز عن شكر ما هو فيه، وهو مغترٌّ في طلب الزيادة؟

أم كيف يعمل للآخرة مَن لا ينقطعُ من الدنيا شهوته، ولا تَنقضي منها نهمتُه؟!

فالعجب كل العجب لَمن يُصدِّق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور!

- ويقول شميط بن عجلان أيضًا في نفس المصدر (ص58): "طالت آمالكم، فجدَّدتم منازلكم من الدنيا، وطيَّبتم منها معايشكم، وتلذَّذتم فيها بطيب الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلقتُم! أولا تعلمون أن الموت أمامكم؟ أولا تعلمون أن ملكَ الموت موكَّل بآجالكم، لا يذهب عنه من المدة شيء؟

ثم يقول: "لا تكونوا - رحمكم الله - أقل شيء بالموت اكتراثًا، وأعظم شيء عن الموت غفلة، فما ينتظر الحي إلا الموت! وما ينتظر المسافر إلا الظَّعن(1)".

- وكان شميط بن عجلان - رحمه الله - يقول أيضًا: "أيها المغترُّ بصحته، أما رأيت ميتًا قط من غير سَقَم؟ أيها المغتر بطول المُهلة، أما رأيت مأخوذًا قط من غير عُدَّة؟ إنك لو فكَّرت في طول عمرك، لنسيتَ ما قد تقدَّم من لذاتك، أبالصحة تغترُّون؟! أم بطول العافية تَمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على مَلَك الموت تَجترِئون؟ إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروةُ مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علِمتَ أن ساعة الموت ذات كَرْب وغُصَص ونَدامة على التفريط، ثم يقول: "رَحِمَ الله عبدًا عمل لساعة الموت، ورَحِمَ الله عبدًا عَمِل لما بعد الموت، ورَحِمَ الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت"؛ (قصر الأمل؛ لابن أبي الدنيا: ص 61-62)، (وصفة الصفوة: 31-347).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- يقول أبو العتاهية - رحمه الله -:

ألا أيُّها المغرورُ ما لكَ تلعب = تؤمِّل آمالاً وموتك أقرب

وتعلم أن الحرص بحرٌ مُعبَّد = سفينتُه الدنيا فإياك تَعطَب

وتعلم أن الموت ينقضي مُسرِعًا = عليك يقينًا طعمه ليس يَعذُب

- وقال زياد النميري - وكان من الزُّهاد العباد -: "لو كان لي من الموت أجلٌ أعرفُ مدَّتهُ، لكنتُ حريًّا بطول الحزن والكمد حتى يأتيني وقته، فكيف وأنا لا أعلم متى يأتيني الموت صباحًا أو مساءً؟! ثم خنَقتْه العَبْرةُ، فقام"؛ (حلية الأولياء: 76/6)، (وقصر الأمل: ص 61).

ليس في كلِّ ساعة من الدهرِ = إلا للمنايا عليكَ فيها رقيبُ

كلَّ يوم تَرميك منها بسَهْمٍ = إن تُخطئ يومًا فسوف تُصيبُ

- يقول محمد بن النضر الحارثي:

"إلى الله أشكو طول أملي، وعند الله أحتسبُ عظيم غفلتي"؛ (قصر الأمل: ص 47).

مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

قال الغزالي - رحمه الله -: "اعلم أن الناس في طول الأمل يَتفاوتون، فمنهم: مَن يأمل البقاء، ويشتهي ذلك أبدًا؛ قال تعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}.

ومنهم: مَن يأمُل البقاء إلى الهَرَمِ، وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه، وهو الذي يحبُّ الدنيا حبًّا شديدًا.

ومنهم: مَن يأمُل إلى سَنَةٍ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، فلا يُقدِّرُ لنفسه وجودًا في عام قابِل، ومنهم: مَن يأمُل مدَّة الصيف أو الشتاء، فلا يدَّخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنهم: مَن يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره، وأمَّا للغد فلا.

كما قال ابن عمر – رضي الله عنهما –: "إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح".

ومنهم: مَن لا يجاوزُ أملُه ساعةً.

ومنهم: مَن لا يُقدِّرُ البقاء أيضًا ساعة.

ومنهم: مَن يكون الموت نُصْب عينيه كأنه واقعٌ به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يُصلِّي صلاة مُوَدِّع.

قصرُ الأملِ صاحبه يبادر إلى العمل:

ويظهرُ أثرُ قِصَر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكلُّ إنسان يدَّعي أنه قصير الأمل – وهو كاذب – إنما يظهر ذلك بأعماله، فهو يعتني بأسبابٍ ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيَدُلُّ ذلك على طول أمله، وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نُصْب العين، لا يغفُل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يَرِدُ عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته، وفرِح بأنه لم يُضيِّع نهاره، بل استوفى منه حظه وادَّخره لنفسه، ثم يستأنِف مثله إلى الصباح، وهكذا إذا أصبح.

ولا يتيسَّر هذا إلا لَمَن فَرَّغَ القلبَ من الغد وما يكون فيه، فمِثل هذا إن مات سَعِد، وإن عاش سُرَّ بحسن الاستعداد ولذة المناجاة، فالموتُ له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموتُ على بالك يا مسكين، فإن السير حاثٌّ بك وأنت غافلٌ عن نفسك، ولعلك قد قاربتَ المنزل وقطعتَ المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتنامًا لكلِّ نَفَسٍ أُمْهِلَت فيه "؛ اهـ مختصرًا.

السبب في طول الأمل و علاجه:

ثم قال الغزالي – رحمه الله – في "إحياء علوم الدين" (4/485-486): "اعلم أن طولَ الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والآخر: حب الدنيا".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

* أمَّا حب الدنيا: فهو أنه إذا أَنِسَ بها وبشهواتها ولذَّاتها وعلائقها، ثقُل على قلبه مفارقتُها، فامتنَع قلبُه من الفِكر في الموت الذي هو سببُ مفارقتها، وكلُّ مَن كَرِه شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوفٌ بالأماني الباطلة، فيُمنِّي نفسه أبدًا بما يُوافِق مُرادَه، وإنما يُوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزالُ يتوهَّمه ويقدِّرُه في نفسه، ويقدِّر توابعَ البقاء، وما يحتاجُ إليه من مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاء ودوابَّ، وسائر أسباب الدنيا، فيصيرُ قلبُه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه، فيلهو عن ذِكر الموت، فلا يقدِّرُ قُربَه، فإن خطَر له في بعض الأحوال أمرُ الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّفَ، ووعَد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبرُ ثم تتُوب، وإذا كبِرَ، فيقول: إلى أن تصير شيخًا، فإذا صار شيخًا، قال: إلى أن تفرُغَ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضَّيعة، أو ترجع من هذه السَّفْرة، أو تفرُغَ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرُغَ من قهر هذا العدوِّ الذي يشمتُ بك، فلا يزال يُسوِّف ويُؤخِّرُ، ولا يخوضُ في شُغل إلا ويتعلَّقُ بإتمام ذلك الشغل عشرةُ أشغال أُخَر، وهكذا على التدرج يؤخِّر يومًا بعد يومٍ، ويُفضي به شغلٌ إلى شغل - بل إلى أشغال - إلى أن تختطفَه المَنِيَّةُ في وقتٍ لا يحتسبهُ، فتطولَ عند ذلك حسرته، وأكثرُ أهل النار صياحُهم من "سوف".

وما أحسن قول يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله - حين قال: "الدنيا خمرُ الشيطان، مَن سكِر منها لم يُفِق إلا في عسكر الموت، نادمًا مع الخاسرين".

وقال بعض الحكماء: "عَجِبْتُ ممَّن الدنيا موليةٌ عنه، والآخرة مُقبِلة إليه؛ يشتغل بالمُدبِرة، ويُعرِض عن المُقبِلة".

فإياكم أيها الأحبة و"سوف"، "فما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل"؛ كما قال الحسن البصري - رحمه الله، وصدق - والله - الحسن فيما قال، فالأمل يُكسِل عن العمل، ويُورِث التراخي والتواني، ويُعقِب التشاغل والتقاعس، ويُخلِد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان، كما أن قِصَر الأمل يبعث على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العمل، ويُحيل على المبادرة، ويَحث على المسابقة، (الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي: 7/10).

* وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يُعوِّل على شبابه، فيستبعِد قُربَ الموت مع الشباب، وليس يتفكَّرُ المسكين أن مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أقل من عُشر رجال البلد، وإنما قَلُّوا لأن الموت من الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ، يموت ألف صبي وشاب، وقد يستبعد الموتَ لصحته، أو يستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غيرُ بعيد، وإن كان ذلك بعيدًا فالمرضُ فجأة غير بعيد، وإذا مرِض لم يكن الموتُ بعيدًا، ولو تفكَّر هذا الغافلُ، وعَلِم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شبابٍ وشيبٍ وكهولةٍ، ومن صيفٍ وشتاءٍ وخريفٍ وربيعٍ، من ليل ونهار، لَعَظُم استشعاره، واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل دعاه إلى طول الأمل، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبدًا يظن أن الموت يكون بين يديه، ولا يُقدِّر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبدًا يظنُّ أنه يُشيِّعُ الجنائز، ولا يُقدِّر أن تُشيَّعَ جنازته؛ لأن هذا قد تَكرَّرَ عليه وأِلفه وهو مشاهدةُ موت غيره، فأما موتُ نفسه، فلم يَألَفهُ، ولم يتصوَّر أن يألفه، فإنه لم يقع، وسبيلُه أن يقيس نفسَه بغيره، ويعلم أنه لابد وأن تُحمَل جنازته ويُدفَن في قبره، ولعل اللَّبِن الذي يُغطَّى به لَحْده قد ضُرِب وفُرِغ منه وهو لا يدري، فتسويفه جهل محض"؛ اهـــ بتصرف واختصار.

علاج طول الأمل:

قال الغزالي - رحمه الله -: "وإذا عرَفت أن سبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا"، فعلاجه دفْع سببه:

أما الجهل: فيُدفع بالفِكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حُب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العُضال الذي أعيا الأوَّلين والآخرين علاجه، ولا علاج له إلا بالإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الثواب، ومهما حصَل له اليقين بذلك، ارتحل عن قلبه حبُّ الدنيا، فإن حُبَّ الخطير هو الذي يمحُو عن القلب حب الحقير، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسةَ الآخرة، استنكَف أن يلتفتَ إلى الدنيا كلها، وإنْ أُعْطِيَ مُلكَ الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدرٌ يسير مكدَّرٌ مُنَغَّصٌ، فكيف يفرحُ بها أو يترسَّخُ في القلب حبُّها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسألُ الله تعالى أن يُرِيَنا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده، ولا علاج من تقدير الموت في القلب مِثل النظر إلى مَن مات من الأقران والأشكال، وأنهم كيف جاءهم الموتُ في وقتٍ لم يحتسِبوا، أمَّا مَن كان مُستَعدًّا فقد فاز فوزًا عظيمًا، وأما من كان مغرورًا، فقد خسِر خُسرانًا مبينًا، فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبَّر أنها كيف تأكلُها الديدان لا محالة؟ وكيف تتفتَّت عظامها؟ فما على بدنه شيءٌ إلا وهو طُعْمةُ الدود، وما له من نفسه إلا العلمُ والعمل الخالص لوجه الله تعالى، وكذلك يتفكَّر في عذاب القبر وسؤال منكَر ونكير، وفي الحشر والنشر وأهوال القيامة، وقرْع النداء يوم العرض الأكبر، فأمثالُ هذه الأفكار هي التي تُجدِّد ذِكرَ الموت على قلبه، وتدعوه إلى الاستعداد له "؛ اهـــ بتصرف واختصار.

وصايا قبل المنايا:

الوصية الأولى: اغتنِم نعمةَ الصحة والفراغ قبل السَّقم والانشغال.

فليس في الوجود أغلى من الوقت، وليس في الحياة نعمة بعد الإيمان أعظم من نعمة الصحة والفراغ.

أخرج البخاري من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ".

يقول ابن الجوزي كما في "فتح الباري" (234/11): "قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون مُتفرِّغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعت - أي: الصحة والفراغ - فغلَب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفيها التجارة التي يظهر ربْحها عن الآخرة، فمَن استعمل فراغه وصحَّتَه في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقُبه الشغل، والصحة يعقُبها السَّقم، ولو لم يكن إلا الهموم.

اغتنِم في الفراغ فضلَ ركوعٍ = فعسى أن يكون موتُك بَغْتة

كم صحيحٍ رأيت من غير سُقْمٍ = ذهبتْ نفسُه السليمةُ فَلْتة

جاء في كتاب "قصر الأمل" (ص105)؛ لابن أبي الدنيا عن عبدالواحد عن صفوان قال:

"كنا مع الحسن في جنازة، فقال: رحِم الله امرأ عمل لِمثل هذا اليوم، إنكم اليوم تَقدِرون على ما لا يَقدِر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور، فاغتنِموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب".

أنتَ في غفلةِ الأمل = لستَ تدري متى الأجل؟

لا تغرَّنَّك صحةٌ فهي = من أوجَعِ العِلَل

فاعملِ الخير واجتَهد = قبل أن تُمنَع العمل

يقول سعيد بن جبير – رحمه الله –: "كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة".

الوصية الثانية: اتقِ الله فيما بقي من عمرك يُغفرْ لك ما قد مضى.

قال الفضيل بن عياض لرجل: "كم عمرك؟ فقال الرجل: ستون سنة، قال الفضيل: إذًا أنت منذ ستين سنة تسير إلى الله تُوشِك أن تَصِل، فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فقال الفضيل: يا أخي، هل عرفتَ معناه، قال الرجل: نعم، عرفت أني لله عبد، وأني إليه راجع، فقال الفضيل: يا أخي، مَن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، عرف أنه موقوف بين يديه، ومَن عرف أنه موقوف عرف أنه مسؤول، ومَن عرف أنه مسؤول فليُعدَّ للسؤال جوابًا، فبكى الرجل،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقال: يا فضيل، وما الحيلة؟ قال الفضيل: يسيرة، قال الرجل: وما هي يرحمك الله؟ قال الفضيل: أن تتقيَ الله فيما بقي، يَغفِر الله لك ما قد مضى وما قد بقي.

يقول أحمد بن عاصم الأنطاكي: "هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يُغْفَر لك ما مضى".

إلهي لا تُعذِّبني فإني = مُقِرٌّ بالذي قد كان منِّي

وما لي حيلةٌ إلا رجائي = لعفوكَ إن عفوتَ وحُسْنُ ظنِّي

وكم من زلة لي في البرايا = وأنتَ عليَّ ذو فضلٍ ومنِّ

أُجنُّ بزهرة الدنيا جنونًا = وأقطع طولَ عمري بالتمنِّي

يظنُّ الناس بي خيرًا وإني = لشرُّ الخَلْق إن لم تَعْفُ عني

الوصية الثالثة: حَاسِبْ نفسك قبل أن تُحاسَب.

فلقد أمرنا الله – عز وجل – بمحاسبة النفس؛ فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: 18]، فالله تعالى يأمُر المؤمنين بالتقوى، ويَحُثهم على مداومة طاعته، ويدعو كلَّ مؤمنٍ إلى مراقبة نفسه، ومراجعة حسناته وسيئاته، عسى أن يتزوَّد المُحسِن من الطاعات، ويتدارك المسيء ما مضى وفات، ويعلم المُقصِّر أن أمامه يومًا يُحاسَب فيه، وربَّا هو ملاقيه، فيجتهد ويَجِد ويعمل ويكِد.

وقد رُوي في الحديث: "الكَيِّس مَن دان نفسَه وعمِل لِما بعد الموت، والعاجز مَن أتبَع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني"؛ (أخرجه الترمذي، والحاكم بسند فيه مقال).

وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول: "حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنُوا، وتهيَّؤوا للعرض الأكبر، يومئذ تُعرَضون لا تخفى منكم خافية".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالمُفرِّط المُقصِّر يقف مع نفسه وقفةَ صدْق، ويقول لها:

يا نفسُ، قد أزِف الرحيل = وأظلَّك الخَطْبُ الجليل

فتأهَّبي يا نفسي لا = يلعب بكِ الأملُ الطويل

فلتزلنَّ بمنزلٍ = يَنسى الخليل به الخليل

ولَيَركَبَنَّ عليك فيـــ = ـــهِ من الثرى ثِقْلٌ ثقيل

ويحك يا نفس! تنشغلين بعمارة دُنياك مع كثرة خطاياك كأنك غير مُرتَحِلة عنها.

أما تنظرين إلى أهل القبور، كيف جمعوا كثيرًا؛ فأصبح جمْعهم بورًا، وبنوا مشيدًا؛ فصار بنياهم قبورًا، وأمَّلوا بعيدًا؛ فصار أملهم زورًا.

ويحك يا نفس! أما لك بهم عِبْرة، أما لك إليهم نظرة.

أتظنين أنهم دُعوا إلى الآخرة، وأنت من المخلَّدين.

ويحك يا نفس! هيهات هيهات! ساء ما تتوهَّمين.

ما أنت إلا في هدْم عمرك منذ أن سقطتِ من بطن أمك.

ويحك يا نفس! تُعرضين عن الآخرة وهى مُقبِلة عليك، وتُقبلين على الدنيا وهى فارَّة مُعرِضة عنك.

فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمِله، وكم من مؤمِّل غدًا لا يبلُغه.

ويحك يا نفس، ما أعظمَ جهلك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة أو النار، وأنت سائرة إلى أحدهما.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فما لك تفرحين وتمرحين وباللهو تنشغلين؟! وأنت مطلوبة لهذا الأمر الجسيم، عساك اليوم أو غدًا بالموت تختطفين.

ويحك يا نفس! أراك تَرين الموتَ بعيدًا والله يراه قريبًا، فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليك من كلِّ قريب، أما تتدبَّرين؟!

الوصية الرابعة: بادِر بالأعمال الصالحة قبل أن يأتيَك الأجلُ.

اعلم أن قِصَر الأمل مع حبِّ الدنيا مُتعذِّر، وانتظار الموت مع الانكباب عليها غير متيسِّر، فالقلب إذا امتلأ بأحدهما، فإنه لا يسعُ الأخرى، كالدنيا والآخرة، والمشرق والمغرب، بقدر ما تقترب من أحدهما تبتعِد من الأخرى، فقِصَر الأمل يجعل الإنسان يُسارِع بحسن العمل، وبهذا يقترب من الآخرة، ويبتَعِد عن الدنيا.

* والنبي - صلى الله عليه وسلم - كان يَحُث على المبادرة للعمل الصالح قبل أن يُفتن الإنسان أو يُشغَل أو يموت.

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((بادِروا بالأعمال فتنًا كقطعِ الليل المُظلِم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا)).

وأخرج ابن ماجه والبيهقي من حديث جابر - رضي الله عنه - قال: "خطَبَنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ((يا أيها الناس، توبوا قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغَلوا، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم، بكثرة ذِكْركم، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، تُرْزقوا وتُنْصَروا وتُجْبَرُوا))؛ (ضعيف الجامع: 6386).

وأخرج الترمذي والحاكم بسند فيه مقالٍ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((بادِروا بالأعمال سبعًا؛ هل تنظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غنى مُطغيًا، أو مرضًا مُفسِدًا، أو هَرَمًا مفنِّدًا، أو موتًا مُجهِزًا، أو الدَّجَّال؛ فشرُّ غائب يُنتظَر، أو السَّاعَة، فالسَّاعَة أدهى وأمر))؛ (ضعيف الجامع: 2315).

وأخرج الحاكم في "المستدرك" والبيهقي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجل وهو يَعِظه: ((اغتنِم خمسًا قبل خمس؛ شبابك قبل هَرَمك، وصحتك قبل سَقَمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغلك، وحياتك قبل موتك))؛ (صحيح الجامع: 1077).

يا عجبًا، أَنِسَ بالدنيا مُفارِقُها، وأَمِنَ النار واردُها، وكيف يغفُل من لا يُغفَلُ عنه؟! كيف يفرح بالدنيا مَن يومه يَهدِم شهره، وشهره يهدِم سنتَه، وسنته تهدم عمره؟!

كيف يلهو مَن يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته؟!

المبادرة المبادرة:

وقال الحسن - رحمه الله - في موعظته: "المبادرة المبادرة؛ فإنما هي الأنفاس، لو قد حُبِست انقطعت عنكم أعمالكم التي تقرَّبون بها إلى الله - عز وجل، رحِم الله امرأ نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية: {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} [مريم: 84]، ثم يبكي ويقول: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فِراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك"؛ (قصر الأمل: ص 106).

وعن محمد بن علي الباقر في قوله تعالى: {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}، قال: النَّفَس؛ (صفة الصفوة: 159/3) (قصر الأمل: ص 126).

(ونُقِل هذا القول عن ابن عباس - رضي الله عنهما - كما في "تفسير ابن كثير" : 137/3).

وكان حسان بن أبي سنان يقول: "بادِر انقطاعَ عملك؛ فإن الموت إذا جاء انقطَع البرهان"؛ (قصر الأمل: ص 111).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال المنذر أبو يحيى: سمعتُ مالك بن دينار يقول لنفسه: "ويحك! بادري قبل أن يأتيك الأمر! ويحك، بادري قبل أن يأتيك الأمر! ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر! قال: فسمعتُه يقول ذلك ستين مرة"؛ (قصر الأمل: ص 105).

وصدق أبو محمد حبيب العجمي حيث قال: "لا تقعدوا فُرَّاغًا؛ فإن الموت يطلُبكم"؛ (قصر الأمل: ص 105).

قال عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – لأبي حازم: "أوصني، فقال له أبو حازم: اضجَع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك الساعة، فخُذ به الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن، فلعل تلك السَّاعَة قريبة".

فلا تُرْجِ فِعلَ الخير إلى غدٍ = لعل غدًا يأتي وأنت فقيدُ

وكان أبو معاوية الأسود يقول لنفسه: "إن كنت يا أبا معاوية تُريد لنفسك الجزيل، فلا تنامنَّ الليل ولا تَقيل، قدِّم صالِح الأعمال، ودعْ عنك كثرة الأشغال، بادِر ثم بادر قبل نزول ما تُحاذر، ولا تهتم بأرزاق من تُخَلِّف، فلستَ أرزاقَهم تُكَلَّف"؛ (حلية الأولياء: 272/8)، و(صفة الصفوة: 271/4).

قال بعضهم يُوبِّخ نفسه ويَعِظها:

"يا نفس، بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور وقد تشقَّقت، وبالأمور وقد تحقَّقت، وبوجوه المتقين وقد أَشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أَطرَقتْ، قال – تعالى وتقدَّس –: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: 12].

يا نفس، أما الوَرعون فقد جدُّوا، وأما الخائفون فقد استعدُّوا، وأما الصالحون فقد فرِحوا وراحوا، وأما الواعظون فقد نصحوا وصاحوا، العلم لا يحصل إلا بالنَّصَب، والمال لا يُجمَع إلا بالتعب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أيها العبد الحريص على تخليص نفسه، إن عزمتَ فبادر، وإن هممتَ فثابر، واعلم أنه لا ينال العِزَّ والمفاخر إلا مَن كان في الصف الأول.

جاء في "حلية الأولياء" (69/9) و"قِصَر الأمل"؛ لابن أبي الدنيا (ص92) عن أبي زكريا التيمي قال: "بينما سليمان بن عبدالملك في المسجد الحرام إذ أُتي بحجر منقور( )، فطلَب مَن يقرؤه، فأُتي بوهب بن منبه، فقرأه، فإذا فيه: "ابن آدم لو رأيتَ قرب ما بقي من أجلك، لزهِدت في طول أملك، ولرغِبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرْصِك وحِيَلِك، وإنما يلقاك غدًا نومك، لو قد زلَّت بك قدمُك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبانَ منك الولد القريب، ورفضك الوالدُ والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاءً شديدًا".

أحبتي في الله، مَن خاف هجوم الأجل قَصر الأمل، وبادَرَ بحسن العمل.

فقد أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: ((مَن خاف أدلج ( )، ومَن أدْلَج بلغَ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)).

أدرك الصالحون خطورةَ الأمر، فشمَّروا عن ساعد الجِد، وأيقنوا أن الحياة الحقيقية والسعادة الأبديَّة، إنما هي حياة الأبرار في دار الرحمن؛ حيث جنات النعيم، فكان كل ما يَشغَل بالهم ويسيطر على وِجدانهم أن يبذُلوا قُصارى جهدهم؛ ليفوزوا بهذا النعيم، وينعموا برؤية وجه الله الكريم.

فها هو ابن عمر – رضي الله عنهما –: "كان يقوم من الليل فيتوضأ ويُصلِّي، ثم يغفو إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويُصلِّي، ثم يغفو إغفاء الطير، ثم يقوم يُصلِّي، يفعل ذلك مرارًا".

واجتهد الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: "لو أمسكتَ أو رفقتَ بنفسك بعض الرِّفق؟، فقال: إن الخيل إذا أُرسِلت فقاربتْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أَجَلي أقل من ذلك! قال: فلم يَزل على ذلك حتى مات!"؛ (قصر الأمل: ص 108).

وكان أبو مسلم الخولاني – رحمه الله – يقول كما في "صفة الصفوة": "لو رأيتُ الجنة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مُستزاد".

وقال أبو حمزة – رحمه الله – كما في "تذكرة الحفاظ": "لو قيل لصفوان بن سليم: السَّاعَة غدًا، ما كان عنده مزيد عملٍ".

وكان عمير بن هانئ: "يُسبِّح كل يوم مائة ألف تسبيحة".

ونحن ربما يمرُّ اليوم ولا نُسبِّح حتى تسبيحة واحدة في اليوم، في حين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال فيما يرويه الترمذي: ((مَن قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِست له نخلة في الجنة))، فكم ضيَّعنا من نخيل؟!

وقال أبو بكر بن عياش – رحمه الله –: "ختمتُ القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة".

وهكذا بادر القوم بالعمل؛ مخافة أن يُفاجئهم الأجل، فبذلوا النفس والنفيس؛ لأنهم يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى.

قال اللبيدي – رحمه الله –: "وجدتُ بعد موت أبي إسحاق الجينياني – رحمه الله – رقعة تحت حصيرة مكتوبة بخطه: رجل وقف له هاتف، فقال له: أحسن أحسِن عملك، فقد دنا أجلك، فقال لي ولده عبدالرحمن: إنه كان إذا قصَّر في العمل، أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جِدِّه".

وقال سفيان الثوري – رحمه الله –: "رأيت شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظِر الموت أن يترل بي، لو أتاني ما أمرتُه بشيء، ولا نهيتُه عن شيء، ولا لي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أحدٍ شيء، ولا لأحد عندي شيء!"؛ (قصر الأمل: ص 71)، (وإحياء علوم الدين: 663/4).

وقال القعقاع بن حكيم: "لقد استعددتُ للموت منذ ثلاثين سنة! فلو أتاني ما أحببت تأخيرَ شيء عن شيء "؛ (قصر الأمل: ص 71)، (إحياء علوم الدين: 663/4).

ما زال يَلهجُ بالرحيلِ وذِكْرِهِ = حتى أناخَ ببابِهِ الجمَّالُ

فأصابه مستيقظًا متشمِّرًا = ذا أُهْبَة لم تُلْهِه الآمالُ

بل كانوا يحرِصون على التزوُّد من الطاعة حتى في آخر لحظات حياتهم.

يقول أبو محمد الجريري - رحمه الله -: "كنتُ واقفًا على رأس الجُنيد في وقت وفاته، وكان يوم الجمعة، وهو يقرأ القرآن، فقلت له: يا أبا القاسم، ارفق بنفسك، فقال: يا أبا محمد، رأيت أحدًا أحوج مني في هذا الوقت؟ هو ذا تُطْوَى صحيفتي".

وقال بِشر بن عبدالله النهشلي: "دخلنا على أبي بكر النهشلي وهو في الموت، وهو يومئ برأسه

- يرفعه ويضعه - كأنه يُصلِّي، فقال له بعض أصحابه: في مِثل هذه الحال رحِمك الله؟ قال: إنني أبادر طيَّ الصحيفة!"؛ (سير أعلام النبلاء: 333/7)، (وقصر الأمل: ص113).

بل انظر لهذا الموقف الجليل لعُمير بن الحمام؛ فقد أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: إنه في غزوة بدر لما دنا المشركون قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض))، فقال عُمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض، قال: نعم، فقال عمير: بَخ بخ ( )، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ما يَحمِلك على قولك: بخ بخ))، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: ((فإنك من أهلها))، فأخرج تَمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال: لئن حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتلَ"؛ (مسلم).

الخاتمة (نسأل الله حسنها):

أُذَكِّرُكم بقول رب العالمين، حيث قال في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [فاطر: 5]، فالدنيا دار غرور، فمن شُغِل بها فهو المغرور، والأيام تُسرِع وتدور، والعمر يذهب ولا يعود، ومع كل طلقة شمس ينادى اليوم ويقول: "ابن آدم، إني يوم جديد، وعلى ما تعمل فيَّ شهيد، وإذا ذهبتُ عنك لم أرجع إليك، فقدِّم ما شئتَ تجده بين يديك، وأَخِّر ما شئتَ فلن يعود أبدًا إليك".

فغفل كثير منا عن هذا، فأخذ يلهَث وراء الملذَّات، والانغماس في الشهوات، والوقوع في المحرَّمات، فتضيع الأوقات، وتفنى الأعمار، ويأتيه الموت فجأة، فيجتمع عليه سكرة الموت، مع حسرة الفوت، فيصرخ قائلاً: {رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} [المؤمنون: 99، 100]، فيا غافلاً عن نفسه! أمرك عجيب، يا قتيل الهوى! داؤك غريب، يا طويل الأمل، ستُدعى فتُجيب، وهذا عن قليل، وكل آتٍ قريب، هلا تذكَّرت لَحْدَك، وكيف تبيتَ وحدك، ويباشِر الثَّرَى خَدك، وتقتسم الديدان جِلدَك، ويضحك المحبُّ بعدك، ناسيًا عنه بُعْدك؟!

والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فَقْدَك، إلى متى وحتى متى تترك رُشْدك؟!

أما تُحسِن أن تُحسِن قصدَك؟! الأمر جد مجد، فلازم جدك"؛ (التبصرة: 206/2).

أخي الحبيب، الموت أول وارِد عليك، والقبر أقرب منك إليك، فاستعد لسفرك، وتأهَّب لرحيلك، وحول جهازَك من المنزل الذي أنتَ عنه ظاعن إلى المنزل الذي أنت فيه مُقيم، ولا تغترَّ بما اغترَّ به الباطلون قبلك، من طول آمالهم، فقَصروا عن ربهم وزادهم، فندموا عند الموت أشد الندامة، وأسفوا على تضييع العمر أشد الأسف، فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا حمِدوا أنفسهم على التقصير؛ (التبصرة لابن الجوزي: 386/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نداء:

أيُّها السكران بالآمال = قد حان الرحيلُ

ومَشيب الرأس والفَوْدَين = للموت دليلُ

فانتبِه من رقْدة الغفلة = فالعمرُ قليلُ

واطرح سوف وحتى = فهما داءٌ دخيلُ

يقول خليد القصري: "كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعدًّا! وكلنا قد أيقن بالجنة، وما نرى لها عاملاً! وكلنا قد أيقن بالنار، وما نرى لها خائفًا! فعلام تعرِّجون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول واردٍ عليكم من الله، بخير أو بشر! يا إخوتاه، سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً"؛ (صفة الصفوة: 231/3).

وبعد:

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة، نسأل الله أن يكتب لها القَبُول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله – سبحانه وتعالى – أن ينفع بها مؤلِّفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشْرها؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صوابٍ فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقَبُول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإنْ وجدتَ العيبَ فسُدَّ الخَللا = جَلَّ مَن لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك